

هربرت بلومر

تأليف

مدرس الدكتور محمد لوتي

أكتوبر 1, 2025

اقتبس من هذا المقال

مدرس الدكتور محمد لوتي (2025). هربرت بلومر. عرب سايكولوجي. تم الاسترجاع من
<https://arabpsychology.com/?p=1506>

هربرت بلومر والتفاعلية الرمزية: فهم المعنى في السلوك الاجتماعي

مقدمة إلى هربرت بلومر والتفاعلية الرمزية

يُعد هربرت بلومر واحداً من أبرز القامات الفكرية في مجال علم الاجتماع، ويُعرف على نطاق واسع بصفته المطور الرئيسي والمنظر الأساسي لمنظور التفاعلية الرمزية. هذا المنظور السوسولوجي العميق يوفر إطاراً تحليلياً لفهم الكيفية التي تُشكل بها المجتمعات والأفراد، مركزاً بشكل أساسي على التفاعل المستمر والمعقد الذي يتم بين الأفراد من خلال الرموز. تكمن أهمية إسهامات بلومر الجوهرية في تأكيده المستمر على الدور المحوري الذي تلعبه المعاني التي يضفيها الأفراد على أفعالهم وسلوكياتهم اليومية، وكيف تلعب هذه المعاني دوراً حاسماً في تشكيل وتوجيه جميع أشكال التفاعلات الاجتماعية. فبدلاً من تبني رؤية اختزالية للسلوك البشري على أنه مجرد استجابة آلية وميكانيكية للمؤثرات الخارجية المحيطة، يقترح بلومر رؤية أكثر تعقيداً وإثراءً، ترى السلوك البشري بمثابة استجابة ذكية ومُتأملة، تتأثر بشكل كبير بتفسير الفرد للمعاني المتضمنة في الموقف الاجتماعي الراهن، مما يمنح الفاعل البشري قدرة كبيرة على الوكالة والتفكير.

إن جوهر الفكرة التي طرحها بلومر تكمن في أن الأفراد لا يتفاعلون بشكل مباشر مع العالم المادي أو الاجتماعي كما هو "موضوعياً" موجود، بل يتفاعلون مع "نسخ" هذا العالم التي يتم إنشاؤها وتفسيرها داخل عقولهم من خلال عملية مستمرة من إضفاء المعاني. هذه المعاني ليست ثابتة أو جوهرية بطبيعتها، بل هي نتاج اجتماعي يتم بناؤها وتعديلها باستمرار عبر التفاعل المشترك بين الأفراد. على سبيل المثال، قد يحمل نفس الفعل أو الكلمة معاني مختلفة تماماً في سياقات ثقافية أو اجتماعية متباينة، وهذا التباين في التفسير هو الذي يحدد طبيعة الاستجابة والسلوك المترتب عليه. وبالتالي، فإن فهم السلوك الاجتماعي يتطلب الغوص بعمق في العالم الداخلي للمعاني المشتركة والشخصية التي يعتمد عليها الأفراد في تفسير واقعهم، بدلاً من الاكتفاء بملاحظة السلوكيات الظاهرة أو تحليل البنى الاجتماعية الكبرى بمعزل عن تجارب الأفراد.

تستند التفاعلية الرمزية، كما صاغها بلومر، إلى مجموعة من المبادئ المترابطة التي تحدد طبيعة المجتمع والتفاعل الاجتماعي. هذه المبادئ لا تقدم مجرد وصف للسلوك، بل توفر إطاراً تحليلياً عميقاً لفهم كيفية تفاعل الأفراد مع بعضهم البعض، وكيف تتشكل المعاني وتتغير بمرور الزمن، وكيف يؤثر كل ذلك في نهاية المطاف على البناء الاجتماعي ككل. من خلال استيعاب هذه المبادئ وتطبيقها، يمكننا الحصول على رؤية أعمق للديناميكيات المعقدة التي تحكم حياتنا الاجتماعية، والتي تتجاوز مجرد الملاحظة السطحية للسلوكيات الظاهرة، وتكشف عن الطبقات العميقة من المعنى والتفسير التي تشكل جوهر الوجود البشري في المجتمع.

الجزور التاريخية والتطور الفكري للمنظور

على الرغم من أن هربرت بلومر صاغ مصطلح "التفاعلية الرمزية" وقام ببلورة مبادئها الأساسية ومنهجيتها البحثية، إلا أن جذور هذا المنظور الفكري العميق تعود إلى أعمال أساتذته وزملائه في جامعة شيكاغو، وتحديداً الفيلسوف وعالم النفس الاجتماعي البارز جورج هربرت ميد. يُعتبر ميد الأب الروحي للتفاعلية الرمزية بفضل إسهاماته الجوهرية حول طبيعة الذات، العقل، والمجتمع، وكيفية نشوئهم جميعاً من خلال التفاعل الاجتماعي القائم على الرموز ذات المعنى. فقد رأى ميد أن العقل والذات ليسا كياناتين فطريين أو موروثين، بل يتشكلان وينموان باستمرار نتيجة لعملية التفاعل المستمرة مع الآخرين ومع البيئة الاجتماعية المحيطة، وذلك باستخدام اللغة والإيماءات ذات الدلالات المشتركة. كانت "مدرسة شيكاغو" للسوسولوجيا في أوائل القرن العشرين بيئة فكرية خصبة للغاية لتطوير هذه الأفكار الرائدة، حيث ركزت على دراسة الحياة الاجتماعية اليومية والعمليات الاجتماعية من منظور نوعي ووصفي، خلافاً للمناهج الكمية السائدة.

تلقى بلومر تدريسه المباشر على يد ميد، وواصل تطوير هذه الأفكار في مسيرته الأكاديمية الطويلة والمثمرة، لاسيما خلال فترة عمله في جامعة شيكاغو ثم في جامعة كاليفورنيا، بيركلي. في كتابه المؤثر والبالغ الأهمية "التفاعلية الرمزية: المنظور

والمنهج" (1969)، قام بلومر بتحديد المبادئ الجوهرية للتفاعلية الرمزية بشكل منهجي وواضح، وقدم نقداً قوياً وبناءً للمنظورات السوسولوجية السائدة آنذاك التي كانت تميل إلى التركيز على البنى الاجتماعية الكبرى الجامدة أو النماذج السلوكية المحددة مسبقاً والميكانيكية. لقد سعى بلومر من خلال عمله إلى إبراز الأهمية القصوى للفاعل البشري وقدرته الفريدة على تفسير المعاني وبناء الواقع الاجتماعي بشكل مستمر وديناميكي، بدلاً من أن يكون مجرد مستجيب سلبي لقوى خارجية مفروضة عليه، مؤكداً على وكالة الإنسان وقدرته على تشكيل عالمه.

ظهرت التفاعلية الرمزية في سياق تاريخي شهد تزايداً في النقد للمناهج الوضعية في العلوم الاجتماعية، والتي كانت تسعى جاهدة إلى محاكاة العلوم الطبيعية في دراسة الظواهر الاجتماعية، متجاهلة بذلك البعد الذاتي والتفسيري للتجربة البشرية. فقد كانت هناك حاجة ماسة وملحة لمنظور يقدم فهماً أعمق للمعاني الذاتية والعمليات التفسيرية المعقدة التي يمر بها الأفراد في حياتهم اليومية، بدلاً من مجرد قياس السلوكيات الظاهرة أو تحليل الإحصائيات. لقد قدم بلومر، مستنداً إلى الإرث الفكري الغني لميد، إطاراً نظرياً ومنهجياً متكاملًا يركز على الكيفية التي يخلق بها الأفراد الواقع الاجتماعي ويفسرونه، مما يوفر بديلاً قوياً وجذاباً للمنظورات التي كانت تهيمن على المشهد السوسولوجي آنذاك مثل البنائية الوظيفية، ويفتح آفاقاً جديدة للبحث والفهم.

المبادئ الأساسية للتفاعلية الرمزية عند بلومر

لخص هربرت بلومر جوهر التفاعلية الرمزية في مجموعة من المبادئ الأساسية التي توضح طبيعة التفاعل البشري وتشكيل المجتمع. أولاً، يرى بلومر أن المجتمع ليس كياناً مجرداً أو قوة خارجية مفروضة على الأفراد، بل هو في جوهره مجموعة من الذوات الفردية المتفاعلة. هذا التفاعل المستمر بين الأفراد، والذي يتم عبر تبادل الرموز والمعاني، هو الذي يشكل السلوك الاجتماعي ويحدد مساره وديناميكيته. بمعنى آخر، المجتمع ليس بناءً ثابتاً ومستقلاً عن أفراد، بل هو نتاج مستمر للعمليات التفاعلية بين الأفراد. الأفراد هنا ليسوا مجرد متلقين سلبيين للتأثيرات الاجتماعية، بل هم مشاركون نشطون وفعالون في خلق وتشكيل المجتمع من خلال تفاعلاتهم اليومية الهادفة والمفسرة، مما يمنحهم وكالة حقيقية في بناء واقعهم الاجتماعي.

ثانياً، تؤكد التفاعلية الرمزية على أن الأفراد لا يُعتبرون محصورين داخل بناء اجتماعي ثابت ومغلق، بل يشاركون في شيء لم يصنعوه بأنفسهم بشكل كامل، ولكنهم يساهمون بنشاط في إعادة تشكيله وتطويره من خلال تفاعلاتهم المستمرة. هذا المبدأ يعكس رؤية ديناميكية للمجتمع، حيث لا يكون الأفراد مجرد "دمى" تحركها القوى الاجتماعية الكبرى أو البنى الجاهزة. بل هم عوامل فاعلة وقادرة على إحداث التغيير والتطوير في البناء الاجتماعي من خلال أفعالهم وتفاعلاتهم التي تحمل معاني متجددة باستمرار، مما يمنحهم قدراً كبيراً من المرونة والقدرة على التكيف مع الظروف المتغيرة وإعادة تعريف المواقف. هذا يعني أن البناء الاجتماعي ليس مصيراً محتوماً، بل هو عملية مستمرة من البناء والتعديل.

ثالثاً، يشير بلومر إلى أن الأفعال التي تتكرر وتصبح نمطية عبر الزمن تتحول مع مرور الوقت إلى عادات راسخة، وهذه العادات هي التي تشكل ما يسميه علماء الاجتماع "البناء الاجتماعي". بمعنى آخر، البناء الاجتماعي ليس كياناً ثابتاً ومفروضاً من الخارج، بل هو نتيجة لتراكم الأفعال والعادات التي يمارسها الأفراد في حياتهم اليومية وتتخذ صيغة مشتركة. هذا المبدأ يؤكد على الطبيعة المتغيرة والقابلة للتطور للبناء الاجتماعي؛ فمن خلال تغيير الأفراد لعاداتهم وأفعالهم، يمكنهم بذلك تغيير البناء الاجتماعي نفسه وإعادة تشكيله بما يتناسب مع المعاني والقيم الجديدة التي تنشأ وتتطور في سياق التفاعل المستمر. هذا يبرز العلاقة الجدلية بين الفعل الفردي والبنية الاجتماعية.

رابعاً، يشدد بلومر على الأهمية البالغة للمواقف الاجتماعية في تحديد الأنشطة والممارسات التي يمارسها الأفراد. فالمواقف الاجتماعية ليست مجرد خلفيات محايدة للأحداث، بل هي "ملاحح الحياة الاجتماعية" التي يجب على الناس تحديدها وفهمها وتفسيرها بشكل مستمر، وفي سياق هذه المواقف المحددة يمارسون أنشطتهم وسلوكياتهم. هذا يعني أن السلوك الاجتماعي

ليس مجرد استجابة عامة وغير متميزة للمؤثرات الخارجية، بل هو استجابة محددة ودقيقة للموقف الاجتماعي الذي يجد الفرد نفسه فيه. وبالتالي، فإن فهم السلوك الاجتماعي يتطلب فهماً عميقاً ودقيقاً للسياق الاجتماعي الذي يحدث فيه وكيفية تفسير الأفراد لهذا السياق وبناء المعاني المشتركة حوله.

خامساً، يرى بلومر أن القيم والمعايير النظامية والمجردة للسلوك لا تلعب بالضرورة دوراً حاسماً ومباشراً في توجيه السلوك الاجتماعي على الدوام، أو أنها لا تعمل بشكل آلي كما يُفترض. فبدلاً من أن يسترشد الأفراد بشكل آلي بمجموعة من القواعد والقيم الثابتة والمحددة مسبقاً دون تفكير، فإنهم يعتمدون بشكل أكبر على تفسيرهم الشخصي والمشارك للمعاني المرتبطة بالموقف الاجتماعي الراهن والمعطيات اللحظية. هذا المبدأ يسلط الضوء على أن السلوك الاجتماعي ليس مجرد تطبيق جامد للقواعد والقيم الأخلاقية، بل هو عملية تفسير وتأويل مستمرة وديناميكية، تتطلب مرونة وتكيفاً مع السياقات المتغيرة، حيث يتم التفاوض على المعاني وإعادة بنائها في كل تفاعل.

سادساً وأخيراً، يؤكد بلومر على أن الاستيعاب المعرفي للموقف هو أمر ضروري للسلوك الاجتماعي الهادف والفعال. فلكي يتمكن الفرد من التصرف بشكل مناسب وفعال في موقف اجتماعي معين، يجب عليه أولاً أن يفهم الموقف ويستوعب معانيه الضمنية والظاهرة. هذا يعني أن المعرفة والفهم ليسا مجرد إضافة ثانوية، بل هما أساس وشرط مسبق للسلوك الاجتماعي السليم والمنسق. الأفراد الذين يفتقرون إلى المعرفة والفهم الكافيين للموقف قد يتصرفون بشكل غير لائق أو غير مناسب، مما يؤثر سلباً على فعاليتهم الاجتماعية وعلى طبيعة التفاعل، وقد يؤدي إلى سوء فهم أو صراع. وبالتالي، فإن الفهم المشترك للمعاني هو مفتاح التفاعل الاجتماعي الناجح.

تطبيق عملي: تحليل التفاعل الرمزي في سياق يومي

لتوضيح مبادئ التفاعلية الرمزية بشكل ملموس ومفهوم، دعونا نتخيل سيناريو يومياً بسيطاً ومتكرراً: اجتماع عمل بين فريق من الموظفين لمناقشة مشروع جديد. في هذا السيناريو، كل كلمة تُقال، وكل إيحاء تُصدر، أو حتى فترات الصمت بين الأحاديث، لا تُفهم بمعزل عن سياقها العام؛ بل تُحمل هذه الرموز بمعانٍ يفسرها كل فرد مشارك في الاجتماع بناءً على خبراته السابقة، وتوقعاته، ودوره الاجتماعي داخل الفريق. على سبيل المثال، إذا قام أحد الموظفين برفع يده أثناء حديث زميل له، فإن هذا الفعل ليس مجرد حركة جسدية عابرة؛ بل هو رمز يحمل معنى "أرغب في التحدث" أو "لدي نقطة أرغب في إضافتها"، وهذا المعنى المشترك هو الذي يوجه سلوك الآخرين، مثل التوقف عن الكلام لإفساح المجال له، أو إيحاء الرأس بالموافقة على تدخله.

بتطبيق مبادئ بلومر، نجد أن المجتمع المصغر في هذا الاجتماع يتكون من "الذوات الفردية" للموظفين الذين يتفاعلون باستمرار. كل موظف يفسر سلوك الآخرين، ويقوم بتعديل سلوكه الخاص بناءً على هذه التفسيرات اللحظية والديناميكية. المعاني هنا ليست ثابتة أو جامدة؛ فابتهامة المدير قد تُفسر على أنها تشجيع وتقدير في سياق معين، أو على أنها سخرية أو عدم موافقة في سياق آخر، وهذا التفسير المعتمد على السياق هو الذي يحدد رد فعل الموظف واستجابته. الأفعال المتكررة، مثل طريقة معينة لتبادل الأفكار، أو تقديم الاقتراحات بشكل منظم، أو حتى طريقة الاعتراض على فكرة، تتحول بمرور الوقت إلى "عادات" راسخة تشكل جزءاً لا يتجزأ من "البناء الاجتماعي" لهذا الفريق، مثل وجود تسلسل هرمي غير معلن للتحدث أو طريقة معينة لاتخاذ القرارات الجماعية.

علاوة على ذلك، فإن "الموقف الاجتماعي" المتمثل في "اجتماع لمناقشة مشروع" يحدد بوضوح الأنشطة والممارسات المسموح بها والمتوقعة من الجميع. لا يتوقع أحد في هذا السياق أن يبدأ موظف في الرقص أو الغناء بشكل مفاجئ، لأن معنى الموقف وقواعده الضمنية لا تسمح بذلك وتجعل هذا السلوك غير ملائم. القيم والمعايير المجردة لـ "احترام الزملاء" أو "الاحترافية في العمل" ليست هي التي توجه السلوك بشكل صارم ومطلق في جميع الأوقات، بل التفسير الفوري للمعاني في اللحظة الراهنة هو الذي يلعب الدور الأكبر. فالاستيعاب المعرفي لمعنى الاجتماع وأهدافه هو الذي يمكن الموظفين من

التصرف بشكل مناسب، وتبادل المعلومات بفعالية، والمساهمة في تحقيق أهداف المشروع المشتركة، وهذا يوضح كيف تتشكل المعاني وتوجه السلوك في تفاعلاتنا اليومية المعقدة.

أهمية وتأثير التفاعلية الرمزية في العلوم الاجتماعية

تحظى التفاعلية الرمزية بأهمية بالغة في حقل علم النفس الاجتماعي وعلم الاجتماع لأنها تقدم منظوراً فريداً وعميقاً لفهم كيفية بناء الواقع الاجتماعي والذات البشرية. فبدلاً من النظر إلى المجتمع كبنية صلبة ومستقلة تؤثر على الأفراد من الأعلى بشكل حتمي، أو إلى الفرد ككائن بيولوجي يستجيب للمنبهات البيئية بشكل ميكانيكي، تضع التفاعلية الرمزية الفرد المتفاعل والوكالة البشرية في صميم التحليل. إنها تسلط الضوء على أن فهم السلوك البشري يتطلب الغوص في عمليات التفسير والمعنى التي يستخدمها الأفراد لإدراك عالمهم والتصرف فيه، مما يجعلها أداة قوية لتحليل الظواهر الاجتماعية المعقدة التي تتجاوز التفسيرات السطحية أو المادية، وتكشف عن الأبعاد الرمزية للوجود الاجتماعي.

تظهر تطبيقات هذا المفهوم في مجالات متنوعة وواسعة النطاق في الحياة المعاصرة. في مجال العلاج النفسي، يساعد المنظور التفاعلي الرمزي المعالجين على فهم كيف يبني الأفراد معاني حول تجاربهم الشخصية، ذواتهم، وعلاقاتهم مع الآخرين، وكيف تؤثر هذه المعاني العميقة على صحتهم النفسية ورفاهيتهم. في التعليم، يمكن للمعلمين استخدام هذا النهج لفهم كيف يفسر الطلاب المواد التعليمية، وكيف تتشكل هوياتهم الأكاديمية من خلال التفاعل المستمر مع أقرانهم ومعلميهم، مما يؤدي إلى تطوير استراتيجيات تعليمية أكثر فعالية. وفي مجال التسويق والإعلان، يساعد فهم كيفية بناء المستهلكين للمعاني حول المنتجات والعلامات التجارية في صياغة حملات إعلانية أكثر فعالية وتأثيراً، تستهدف القيم والرموز التي يتبناها الجمهور. كما أنها توفر إطاراً قوياً لتحليل الحركات الاجتماعية وتشكيل الرأي العام، حيث تلعب الرموز والمعاني المشتركة دوراً حاسماً في حشد الدعم وتوجيه العمل الجماعي نحو أهداف معينة.

كما أثرت التفاعلية الرمزية بشكل كبير على المناهج البحثية في العلوم الاجتماعية، لاسيما في مجال البحوث النوعية التي تسعى إلى فهم التجارب الذاتية للأفراد. فقد شجعت على استخدام طرق بحثية مثل الملاحظة بالمشاركة، والمقابلات المتعمقة، وتحليل المحتوى، لفهم التجارب الذاتية للأفراد والمعاني التي يصفونها على حياتهم وسلوكياتهم. لقد ساهمت في تطوير فهمنا لكيفية بناء الهوية الشخصية، وتشكيل الأدوار الاجتماعية، وتطور الثقافة، وكيف تتغير هذه الظواهر بمرور الوقت من خلال التفاعل الرمزي المستمر. وبالتالي، فإن إسهامات بلومر وغيره من التفاعليين الرمزيين لا تزال تشكل حجر الزاوية في التفكير السوسولوجي والنفسي المعاصر، مقدمة رؤى لا غنى عنها لفهم التعقيدات الجوهرية للوجود البشري والتفاعل الاجتماعي.

توسعات المنظور: إرفينج جوفمان ومفهوم الدراماتورجيا

بالإضافة إلى هربرت بلومر، يعتبر إرفينج جوفمان من أبرز الشخصيات التي أسهمت بشكل كبير في تطوير وتوسيع آفاق التفاعلية الرمزية، لاسيما من خلال المنظور الدراماتورجي الذي ابتكره وقدمه في أعماله الرائدة. يركز جوفمان في أعماله على كيفية "تنظيم الحياة الاجتماعية" من خلال التفاعل اليومي بين الأفراد، وكيف يؤثر هذا التنظيم الدقيق على تشكيل الهوية الذاتية والسلوك الاجتماعي. لقد قدم جوفمان استعارة قوية وراسخة ترى الحياة الاجتماعية كمسرح كبير، حيث يقوم الأفراد بأداء أدوار مختلفة في مواقف اجتماعية متباينة، ويسعون جاهدين لتقديم صورة معينة ومحددة عن أنفسهم للآخرين، في محاولة منهم لإدارة الانطباعات التي يتركونها، تماماً كالممثلين على خشبة المسرح الذين يتقمصون أدواراً مختلفة أمام الجمهور.

تستند التفاعلية الرمزية عند جوفمان إلى فكرة أساسية مفادها أن تنظيم الحياة الاجتماعية لا ينشأ من قوى خارجية مجردة أو هياكل مفروضة بشكل حتمي، بل هو نتاج داخلي للمجتمع، ونتيجة مباشرة لعملية التفاعل المستمرة بين أعضائه. هذا

يعني أن المجتمع ليس كياناً ثابتاً ومفروضاً من الأعلى، بل هو بناء حيوي يتجدد باستمرار من خلال التبادلات الرمزية اليومية بين الأفراد. فمن خلال هذه التفاعلات المعقدة التي تتضمن تبادل الإشارات والرموز، يتم إنشاء وتعديل القواعد والمعايير التي تنظم الحياة الاجتماعية وتحدد مسارها، مما يجعل الأفراد مشاركين نشطين وفاعلين في بناء واقعهم الاجتماعي الخاص بهم، وليسوا مجرد متلقين سلبيين له.

يرفض جوفمان بشدة الفكرة التي تقول بأن تنظيم الحياة الاجتماعية يرجع بشكل حصري إلى تأثير عوامل خارجية حتمية ومحددة سلفاً، مثل العوامل الجغرافية أو الاقتصادية. بل يؤكد على أن هذا التنظيم محكوم بالتوافق الذكي والإبداعي الذي يحققه الأفراد مع هذه العوامل الخارجية. بمعنى آخر، الأفراد ليسوا مجرد متلقين سلبيين للتأثيرات الخارجية، بل هم عوامل فاعلة وقادرة على التكيف مع هذه التأثيرات وتشكيل حياتهم الاجتماعية بطريقة ذكية ومناسبة، مستخدمين قدرتهم على تفسير المعاني. يشدد جوفمان على أن التنوع في أشكال التنظيم الاجتماعي هو نتيجة طبيعية لتنوع استجابات الأفراد وأنماط توافقهم مع العوامل الخارجية، مما يعكس مرونة المجتمع البشري وقدرته الهائلة على الابتكار والتكيف في مواجهة التحديات المختلفة.

الذات والوعي: رحلة من ميد إلى جوفمان

في عمله الرائد "عرض الذات خلال الحياة اليومية" (The Presentation of Self in Everyday Life)، ينطلق إرفينج جوفمان من مفهوم الذات لمعالجة الصلة العميقة والمعقدة بين الفرد والتنظيم الاجتماعي للمجتمع. يتفق جوفمان بشكل أساسي مع أستاذه جورج هربرت ميد في أن الذات هي كيان اجتماعي بامتياز، لا يولد مع الفرد بل يتشكل ويتطور بشكل حصري خلال عملية التفاعل الاجتماعي المستمرة. فالفرد لا يعي فحسب "الآخر المعمم" (the generalized other) الذي يمثل مجموعة المواقف والقيم التي يتبناها المجتمع ككل ويستبطنها في ذاته، وإنما يستخدم هذه القيم والاتجاهات السائدة في وسطه الاجتماعي، أو يتعلمها ويدخلها ضمن تكوينه النفسي بطريقة تجعله قادراً على تطوير اتجاهاته تلقائياً، وتنمية خبرته ومشاعره، وإتيان أفعال اجتماعية ملائمة ومقبولة في مختلف السياقات.

يرى جوفمان أن الفرد يسعى دائماً إلى تقديم صورة معينة ومحددة عن نفسه للآخرين، وأن هذا السعي المستمر لإدارة الانطباعات يؤثر بشكل مباشر وعميق في سلوكه وتفاعلاته الاجتماعية اليومية. فالفرد ليس مجرد كائن عقلائي يسعى إلى تحقيق مصالحه الخاصة بمعزل عن الآخرين، بل هو كائن اجتماعي يتوق إلى الحصول على اعتراف الآخرين وتقديرهم وقبولهم لذاته. وهذا السعي الأساسي هو الذي يدفعه إلى أداء أدوار مختلفة ومتعددة في مواقف اجتماعية متباينة، وإلى تقديم صورة معينة عن نفسه تتناسب مع هذه الأدوار وتوقعات الجمهور المحيط به، تماماً كالممثل على خشبة المسرح الذي يغير من أدائه ليناسب طبيعة الشخصية التي يجسدها والمشهد الذي يؤديه.

يؤكد جوفمان على أن الهوية الذاتية ليست شيئاً ثابتاً أو محدداً سلفاً، بل هي بناء ديناميكي يتغير ويتطور باستمرار من خلال عملية التفاعل الاجتماعي. فالفرد ليس لديه هوية واحدة وحقيقية ثابتة لا تتغير، بل لديه مجموعة من الهويات المتعددة التي يعرضها ويبرزها في مواقف اجتماعية مختلفة، وتتأثر هذه الهويات بالسياق والجمهور. هذه الهويات تتشكل وتتغير باستمرار من خلال التفاعل مع الآخرين، ومن خلال ردود أفعالهم واستجاباتهم لما يقدمه الفرد من صور عن نفسه، مما يجعل الذات عملية مستمرة من البناء والتعديل وليست كياناً مكتملاً وثابتاً. هذا المنظور يبرز مدى مرونة الإنسان وقدرته على التكيف الاجتماعي.

اللغة والرموز: الركيزة الأساسية للتفاعل الاجتماعي

في قلب التفاعلية الرمزية يكمن الاعتقاد الراسخ بأن النظام الرمزي، وتحديداً اللغة، هو الأهم والأكثر جوهرية في عملية التفاهم والتفاعل التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتشكيل الذات ونسج العقل والوعي الاجتماعي. فاللغة ليست مجرد وسيلة

بسيطة للتواصل العابر، بل هي الأداة الرئيسية والأساسية التي يستخدمها الأفراد للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم المعقدة، وللتواصل الفعال مع الآخرين بطريقة ذات معنى عميق ومشارك. ومن خلال اللغة، يتم نقل المعاني والقيم الثقافية والتراث المعرفي من جيل إلى جيل، مما يساهم بشكل مباشر في تشكيل الهوية الذاتية للفرد والثقافة الاجتماعية للمجتمع ككل، وتوحيد فهم الأفراد للعالم من حولهم.

أوضح جورج هربرت ميد، الذي أثر بشكل كبير في كل من بلومر وجوفمان، الفرق الجوهرية بين الإيماءات والرموز. فالإيماءة قد تكون مجرد فعل اجتماعي غير واعٍ أو استجابة طبيعية لمؤثر معين، مثل تراجع الفرد بشكل غريزي عند رؤية يد تتجه نحوه بسرعة. أما الرمز، فهو يحمل معنى مشتركاً ومتفقاً عليه ضمن جماعة معينة، ويتطلب تفسيراً واعياً ومقصوداً من قبل المتلقي. الإنسان وحده هو الكائن القادر على الاستجابة للرموز واستخدامها بوعي وإدراك، وهذا ما يميز التواصل البشري المعقد عن أشكال التواصل الحيوانية الأكثر بساطة. وإذا حملت الإيماءة معنى مشتركاً ومعترفاً به من قبل مجموعة من الأفراد، فإنها ترتقي لتصبح رمزاً، مثل إيماءة الرأس للأعلى أو للأسفل للدلالة على الموافقة أو الرفض.

إن الفعل الاجتماعي، سواء كان عملاً مادياً ملموساً أو قولاً منطوقاً مسموعاً، هو في جوهره عبارة عن رمز يحمل في طياته معنى عميقاً يحتاج إلى تأويل وتفسير من قبل المتلقي. فالأفعال والأقوال ليست مجرد حركات جسدية أو أصوات عابرة لا قيمة لها، بل هي رموز مشبعة بالمعاني التي يجب أن يتم تفسيرها وفهمها من قبل الآخرين في سياق معين لكي يتم التواصل بفعالية. وهذا يعني أن التواصل الاجتماعي الفعال هو عملية تفسير وتأويل مستمرة وديناميكية، حيث يتبادل الأفراد الرموز ويحاولون فهم المعاني الكامنة وراءها للوصول إلى فهم مشترك، مما يعزز التماسك الاجتماعي ويسهل التعاون والتنسيق بين أفراد المجتمع، ويشكل بناءهم الاجتماعي.

الذات كعملية ديناميكية ودور التوقعات المستقبلية

ينظر التفاعليون الرمزيون إلى الذات ليس كوحدة ثابتة أو كيان جوهري مكتمل ومحدد مسبقاً، بل كعملية ديناميكية مستمرة تتضمن قدرة الإنسان الفريدة على الاستجابة لنفسه بنفس الطريقة التي يستجيب بها لذوات الآخرين. هذه القدرة على "موضوعية الذات" (self-objectification) تعني أن الفرد يمكنه أن يرى نفسه من منظور الآخرين وأن يفسر أفعاله ومعانيه كما يفسرها المجتمع، مما يجعله قادراً على تقييم ذاته وتعديل سلوكه. هذه القدرة على الاستجابة للذات، وكذلك القدرة على المشاركة الفعالة في الحديث والاتصال واستخدام الرموز بوعي في تقرير مسارات الفعل، كلها عناصر أساسية في تشكيل الذات. الذات، بهذا المفهوم، ليست كياناً بيولوجياً فطرياً، بل تنمو وتتطور نتيجة التفاعل المعقد والمستمر مع الذوات الأخرى في البيئة الاجتماعية، وتتأثر باستمرار بهذه التفاعلات.

ترتبط اختيارات الفرد لأفعاله وسلوكه بشكل وثيق بما يتخيله ويتوقعه للمستقبل. فالتوقعات المستقبلية التي يبنها الفاعل ليست مجرد أوهام أو أحلام مجردة، بل هي التي تضبط مسار الفعل وتوجه عقلانيته وتخطيطه. الفعل العقلاني، من منظور التفاعلية الرمزية، هو الفعل الذي يستطيع فيه الفاعل تخيل الأهداف المستقبلية المحتملة ونتائجها المحتملة، ومن ثم يختار المسار الأنسب لتحقيق هذه الأهداف بكفاءة. وبذلك يصبح تنظيم العقل، أي قدرة الفرد على التفكير التأملي والتخطيط، شرطاً مسبقاً وأساسياً للاتصال الفعال والتفاعل الاجتماعي الهادف. إن القدرة على توقع وافترض السلوك المستقبلي للآخرين تلعب دوراً محورياً في عملية التنظيم الاجتماعي، حيث تسمح للأفراد بالتكيف والتنسيق مع بعضهم البعض وبناء توقعات مشتركة.

إن عملية التفاعل الرمزي تتم من خلال نظام رمزي مشترك (مثل اللغة، والإيماءات، والرموز الثقافية) وتؤدي في الوقت نفسه إلى قيام وتطوير نظام رمزي مشترك بين الأفراد، مما يعمق فهمهم المتبادل. هذه العملية لا تقتصر على تبادل المعاني السطحية، بل تؤدي أيضاً إلى ربط البناءات الاجتماعية القائمة من خلال تشكل الذات ونضوج العقل، وتفسير الأفراد لذواتهم وللعالم. وبذلك، يصبح مفهوم الذات، ومفهوم العقل، والبناءات الاجتماعية، وما بين هذه الثلاثة من علاقات

وتفاعلات متبادلة وديناميكية، مدخلاً تحليلياً شاملاً لدراسة علاقة الفرد بالجماعة والمجتمع، ولفهم الكيفية التي يتشكل بها الواقع الاجتماعي المعقد والديناميكي، مما يوفر رؤى عميقة في طبيعة الوجود البشري.

ARABPSYCHOLOGY.COM